

الحياة عادة

نلاحظ أن الذي يعتاد أن يتناول في ميعاد معين قدحا من القهوة أو كروبا من الشاي أو غيرها من المنبهات أو المخدرات مدة من الزمن لا يستطيع أن يؤدي عمله ولا أن يسلك السلوك الطبيعي في حياته إذا لم يتناول ما اعتاد أن يتناوله في ميعاده المصين ، وربما كان قد تناول هذه الأشياء في أول الأمر على سبيل التسلية أو الترويح أو التقايد ، غير مصدق أنها تصبح عادة له تتحكم فيه ، وتخل بنظام حياته الطبيعية إذا لم يخضع لحكمها !

وعادة المخدرات أو المنبهات هي التي تبدو لنا واضحة كمثل العادة المتحكمة ، ولكن الواقع أن الحياة كلها عادة كبيرة يجمع ما فيها من الصغائر والكبائر ، وأن الفارق بين فرد وفرد أو بين شعب وشعب ، إنما هو مجموعة عادات تختلف في هذا عن ذاك ، فتكون شخصية للفرد أو للشعب تختلف عن شخصية سواه .

والفرق بين الإنسان المهذب الراقى ، والإنسان الجلف المتخلف ، هو مجموعة عادات في الحركة والكلام ومخارج الصوت والنظرة والإشارة وطريقة الأكل والشرب واللبس والجلوس والضحك . . . إلى آخر الحركات اليومية التي يؤديها الإنسان بحكم العادة وبدون انتباه في غالب الأحيان .

وحقيقة أن هذه مظاهر خارجية ولكن لها دلالتها على الحقائق الباطنة في النفس الإنسانية فهي تصدر عقوا بلا تفكير ولا تدبير فتدل على الممدن الأصيل لهذه النفس ، وقد يتناولها التكلف فيدل هذا التكلف نفسه على فقر النفس في هذه الصفات المتكلمة وعلى أنها حديثة عهد بها ، ولكن هذا لا ينفي أنها حينما تزاول مدة كافية تصبح طبيعية ، وتترك آثارها في الحياة الباطنة ، وتؤدي إلى التهذيب الحقيقي بعد مدة طويلة أو قصيرة .

وقد قلنا إن عادة المخدرات والمنبهات وأمثالها ليست هي العادة المتحكمة الوحيدة ، وأن الحياة كلها مجموعة عادات . وهذا يلفت نظرنا إلى وجوب الحرص على تكوين عادات صالحة لأولادنا ولأنفسنا منذ بدء الحياة ، فعظم العادات يتكون في سن مبكرة وعن طريق القدوة والتكرار في وقت لم يقبض فيه العقل ليوافق بين الصالح والنافع منها ، أي أن معظم العادات يغزونها ونحن على غير استعداد فيترك في حياتنا أثرا دائما لا حيلة لنا فيه ، أو يحتاج منافي مقاومته حين نتنبه لخطره إلى مقاومة عنيفة قد نفلح في نهايتها أو لا نفلح حسب تمكن العادة ومقدار ما فينا من قوة الإرادة (التي هي الأخرى عادة من العادات تربوي وتتمى كغيرها من عاداتنا الكثيرة) .

وكلنا رأى بعض الناس الذين يلبسون ملابس وجبهة ويركبون السيارات في بعض الأحيان . ثم يأتون مع ذلك بحركات قذرة سخيطة كالبصق على الأرض وفي جيوبهم المناديل أو وضع الاصبع في الأنف ، أو التجشؤ بصوت مسموع في وجوده الجالسين ، أو الضحك بطريقة خارجة ، أو التحدث بنغمة خاصة ، أو التفوه بانفاظ وتعبيرات وقحة . إلى آخر أمثال هذه البسائط المؤذية التي لا تترك مجالاً للشك في البيئة الأولى التي نشأ فيها أمثال هؤلاء الوجهاء المزيفين وراء المظهر ، والتي تدعو لسقوط كرامتهم مهما كانت هذه المظاهر !

وقد لا تصل العادات السيئة الى هذا المستوى من الانحطاط ولكنها تظهر مثلاً في عدم ضبط نبرات الصوت حسب المناسبات في الحديث ، أو عدم مراعاة الأدب اللائق في المخاطبة والرد بالإسغاء الى المتحدث وإفساح المجال لرأيه ما دام مقولاً ومناقشته في حدود الموضوع المعروض . . . وقد يبدو أن ليس للعادة أثر هنا ، ولكن الواقع أن هذه التصرفات مبنية على العادة المستقاة من القدوة في البيئة التي ينشأ فيها الإنسان ، ويلتقط عاداتها بدون انتباه .

بعض الناس يناديك في الطريق فيسلم عليك كأنه يصارعك ، أو يلمحك ، من بعد فلا يستنكف أن يزقني عليك كالمصروع ، أو يتحدثك في مسائل خاصة بصوت كصوت الشجار غير ملق باله الى الركاب أو الجلاس من حولك ، أو يمد يده ليتناول قلمك من جيبيك ليكتب أو سيجارتك من يدك ليشعل سيجارته بكل بساطة !! فما الذي يجعلهم على مثل هذه التصرفات ؟ إنها العادة بلا جدال .

وهذا الرجل الذي يفربل في مشيته وهذه السيدة التي تتخلع في سيرها ، وهذا الشاب المنحني التامة ، وهذا الصبي الذي يظلع اذا سار . . . ثم هذا الذي يتحدث فيمضع الكلمات ويخطف الحروف ، وهذه التي تمذف من فيها بالكلمات كالمدفع الرشاش . . . أو ذلك الذي يتفتن على وجهك لأنه يتحدثك أو يزغذك عدة مررات لأنه يسترعى اتاباك ؛ أو يضع فمه على أنفك لأنه يسر إليك بالحديث وهو يرفع صوته فيسمع الجيران . الخ . هؤلاء جميعاً ما شأنهم ؟ انهم لم يجدوا من يقوم خطواتهم أو يهذب حديثهم ، أو يعودهم العادات الصحية والآداب المرعية ، في مثل هذه التصرفات اليومية .

وهذه الأمثلة المبسطة تلفت نظرنا الى أثر العادات الصغيرة في حياة الإنسان ومركبه وحكم الناس عليه ، فإذا ارتقمنا منها الى ما هو أكبر منها وضع لنا هذا الأثر بارزاً ملموساً ، ونحن نتخار بضع طوائف من هذه العادات المتحكمة .

فالعادات الصحية كالنظافة والرياضة ، والمهجو المبكر ، وانتظام التغذية ، إلى آخر هذه العادات ذات أثر حاسم في الصحة الفردية والشعبية ؛ وجميعها تكون بالمرانة والتعود

في سن مبكرة جدا أكثر مما يعتمد الكثيرون من الآباء والأمهات الذين لا يلتفتون الى أطفالهم الا بعد سن معينة ؛ بل إن بعضها ينشأ عن غير وعي بحكم المناظر التي تقع عليها عيون الأطفال وتالفها أنظارهم في سن الطفولة المبكرة .

و كثيرا ما نرى الصبي الذي يصحو في موعد معين كل يوم فيغسل يديه ووجهه ورأسه ورجليه بطريقة آلية وينظف طربوشه وبذلته وحذاءه بينما هو يفكر في الدرس الأول ، ويسير منتصب القامة متوسط السرعة ، ويعود في نهاية اليوم ليخلع ويفسل ويرتاض ثم ينام في ساعة معينة أو يذهب إلى المزير ليأتم بعد غسل وجهه ورأسه . هذا الصبي لا يصنع هذا كله لأنه يدرك فائدته ، ولكن لأنه تعود فاعتاد . وكل منا يستطيع أن يتنبأ لمثل هذا الصبي بمستقبل طيب على الأقل من الناحية الصحية ، وهي ذات أثر عميق في الحياة العقلية والنفسية ، وفي الحياة الاجتماعية كذلك .

ونحن نصف شخصا ما بأن ذوقه سليم . ونعني بهذا ذوقه في الألوان والروائح والطعوم وذوقه في الجمال والفنون ، ثم ذوقه في التصرفات الاجتماعية . وهذا الذوق هو ثمرة عادات خفية استقرت في الحس والنفس منذ الطفولة ، حين وقعت عين هذا الطفل على مناظر متألفة منسجمة ، واستمعت أذنه الى نغمات وأصوات لا تشاز فيها ، ونشق أنفه روائح هادئة رقيقة ، واعتاد أن يرى من المحيطين به حركات وإشارات وانفعالات مهذبة في مناسبات خاصة ، فانطبع هذا كله في حسه ، وأصبح يسعفه في المناسبات بدون كد ولا تعمل .

فاذا ارتقمنا إلى الحياة العقلية والعملية والاجتماعية لاحظنا أن هناك أفرادا نسميهم أصحاب الشخصية القوية ، وأفرادا نسميهم ضعاف الشخصية . وأشخاصا محبوبين من الوسط وآخرين مكروهين ، وأناسا جادين في حياتهم وآخرين هازلين . وجماعة يمتازون بالدأب وقوة الإرادة وآخرين متقلبين مضطربين إلى آخر هذا الانمط التي لا تنتهي .

ولو رحنا نحصى الفوارق بين هؤلاء ودولاء لوجدناها في النهاية مجموعة عادات تحدد تصرفاتهم في وقت معين فتفترق بينهم الطريق . ولا نستطيع أن نشكر الوراثة والمواهب الطبيعية ؛ ولكن الوسط هو الذي يوجه هذه الوراثة والمواهب ، بتكوين عادات معينة هي التي تحدد الموقف طيلة الحياة .

خذ مثلا لذلك ما نسميه " القوة المعنوية " فإلى هذه القوة المعنوية ؟ إنها قوة الاحتمال والتماسك والرجاء في حالات الخطر والضغط والشدة . وكيف توجد هذه القوة ؟ إنها توجد بعد مواجهة عدة حالات من الحرج في وسط عائلي أو اجتماعي يملك أعصابه ويحمل الكارثة حتى تمر... فالطفل الذي يرى أمه أو أباه أو أحد المشرفين عليه باستمرار يصرخ ويهتزع ويفقد صوابه لأن النار قد شبت في المنزل أو لأن حائطا انهار أو لأن أحد أفراد الأسرة

أصيب في حادث ... لا يمكن أن ينشأ شديد القوة المعنوية ، بعكس طفل آخر تقع عينه في مثل هذه الحوادث على ثبات وتماسك وتحمل ، فإذا فزع نهن عن هذا النزاع وأشعر بالطمأنينة والأمن ، فهذا هو الذي نسميه فيما بعد "رجلا ذا قوة معنوية" .

والولد المدلل الذي تجاب رغباته جميعا ، ويحس أن الكل في خدمته ، وأن له حقوقا على الجميع ولا حق لأحد عليه ، وأنه يجنب جميع المتاعب والعراقل ، وتمهد له شئون الحياة في يسر وعمومة ... هذا الطفل ان يكون أبدا رجلا ذا قوة معنوية ، لأنه اعتاد ألا يواجه التبعات والأخطار ، فإذا واجهها فلما أن ياجأ إلى سواه ليحملها عنه وإما أن تخور قواه ويستسلم لدى الصدمة الأولى .

والحياة في المجتمع . إنها كذلك عادة . فالولد الذي لم يتعود منذ نشأته أن يعامل الناس وأن يتحدث معهم ويجلس إليهم ويأخذ منهم ويعطى ، ينشأ نجولا مرتبكا ، جادلا بالآداب الاجتماعية ، غريبا عن البيئة العامة وهو الذي نسميه فيما بعد (لحمة) أو شاذا، والذي يحتاج — بعد أن يكبر — إلى مجهود عنيف يبذله لمواجهة المجتمع الذي يعيش فيه ، وقد ينجح في هذا المجهود أو يفشل حسب الظروف .

والمهم أن المعرفة النظرية لا تجدي دون المزاولة العملية ، فالطفل الذي يلقن أن يسلم على الضيوف مثلا دون أن يعتاد التسليم عليهم بالفعل لا يجيد ذلك ، والتسليم على الضيوف مثل صغير لبقة التصرفات الاجتماعية الكبيرة .

وهذا المثل يلفت نظرنا بشدة إلى الأخطاء الشائعة التي نرتكبها في إعداد شبانا وشاباتنا للحياة العملية في المستقبل .

فالمعروف أن الشاب المصري لا يقل في معلوماته — بل هو يزيد — عن زميله الأجنبي ولكنه لا ينجح في الحياة نجاحه . لماذا ؟ لأن الطفل المصري ثم الشاب المصري ينشأ في شبه عزلة اجتماعية عن الوسط الذي سيواجهه في حياته العملية . فالمدرسة تحول بينه وبين هذا الوسط طيلة مدة الدراسة حتى في المدارس العملية ، ولا صلة بينها وبين سوق العمل والتلميذ والطالب يبقى في هذه العزلة مدة تراوح بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة ثم تقذف به إلى المعترك بعد ذلك مجردا من جميع التجارب العملية والاجتماعية ، فيجتار ويرتكب فإما أن ينكص على عقبيه بعد ذلك يطلب الأمن والسلام في دواوين الحكومية ، وإما أن يتنجم الميدان ولكن في حذر وتردد يقعدان به عن مجاراة زميله الأجنبي الذي خبر الحياة وهو يتلقى الدروس بالمدرسة ، لأن تقاليد هذه المدرسة وتقاليد الأسرة التي يعيش فيها تساعده على الخبرة بالحياة .

وهذه الفتاة المصرية التي نترعها من حياة البيت انتزاعا مدة عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما في مدرسة لا صلة بينها وبين البيت ، ولا مشابهة بين جوها وجوه . لا في عمل ولا

في مجتمع ولا في مهنة ، ثم نطلب إليها بعد ذلك أن تعود الى البيت زوجة ، بعد ما اقتربت عنه هذه الغربية النابوية المديدة . الغربية الروحية والغربة العملية والغربة الاجتماعية . ألا تكون متعتين حين نطلب الى فتاة من هذا النوع أن تحيا وتتغنى في هذا الجو الغريب .

الفتاة التي اعتادت أن تنهض في الصباح المبكر فتتطرق الى الشارع ومنه الى المدرسة حيث تلتقي بعشرات الوجوه في الطريق وبعشرات الوجوه في المدرسة من زميلات ومدرسات ومدرسين ، ثم بعشرات الوجوه في الكلية من زميلات وزملاء وأساتذة . حتى إذا عادت في نهاية اليوم عادت مثقلة بالواجبات المدرسية جلست الى المكتب والكتاب ، أو ذهبت الى زيارة زميلة أو زميلات أو استقبلتهن للحديث في الجو المدرسي والحياة المدرسية . فإذا كان يوم عطلة فهي في رحلة مدرسية أو مشاهدة سينمائية أو مسرحية أو رياضة جماعية على كل حال .

هذه الفتاة بأى حق نستطيع احتسابها في المنزل بعد ذلك زوجة مسؤولة وربة بيت مفردة ، بعد هذا الضجيج وهذا الاختلاط وهذه الحياة الاجتماعية التي أصبحت عادة لها مدى خمسة عشر عاما كاملة .

وحين يصبح الصباح ولا تنطلق هذه الفتاة الى الشارع فالى المدرسة كما اعتادت رجالها أن تحملها كل صباح . كيف تطيق الحياة وتصر على هذا الحبس الفظيع ؟ ثم نطلب إليها بعد ذلك وفوق ذلك أن تشرف على بيت ، وأن تكون مسؤولة عن أطفال ، وهي التي ظلت طفلة طول هذا الوقت معقاة من كل شؤون البيت لأن النجاح في الامتحان العلمي النظري والحصول على الشهادة المدرسية هو كل ما يطالها به أهلها طيلة هذه السنوات . يجب أن نحسب حسابا لهذه الصدمة التي تصيب كل فتاة وأن نعذر هؤلاء الفتيات اللواتي يحظنن أعشاشهن ويطنن منها في العام الأول ، فهؤلاء فتيات لم نهيئن نحن للاحتباس في الأعشاش مهما كانت مغرية ، لأن سنى الدراسة طويلة ، والجو المدرسي بعيد كل البعد عن الجو العائلي ، والواجبات المدرسية ثقيلة لا تدع لمن وقتنا للاشتراك في الحياة المنزلية بعد المدرسة ، ومقتضيات الحياة في المدارس جميعها تتنافر مع مقتضيات الحياة داخل البيوت .

وهناك الفتيات المدلات اللواتي قد اعتدن من أهلهن إجابة جميع رغباتهن بلا قيد ولا شرط بحجة أنها مطالب بريئة ، كما اعتدن ألا يعنين بأحد بيننا تتوجه إليهن العناية من الجميع وألا يسألن عن شيء وسواهن يحتمل جميع التبعات .

هذا الصنف من الفتيات يفشل كل يوم أمام أعيننا في الحياة الزوجية ذات التبعات الكثيرة ، لأنهن يصطلن من إرادة أخرى غير إرادتهن وبمشكلات لم يعتدن مواجهتها من قبل ، ويتدير منزل ورعايه أطفال ، وبعشرات من ملابس الحياة اليومية مع الخدم

وغير الخدم ، ولا حياة لمن في هذا كله لأنهم لم يعتدوا هذه الحياة . والعادة أقوى سلاح في معترك الحياة .

والبيوت التي اعتادت أن تترك للربيات وللخدم الإشراف على أطفالها معظم ساعات اليوم ، إما لاعتقاد سيداتها أن هذا من مقتضيات الحياة الأرستقراطية ، وإما لأنهن مشغولات بتفاهات الحياة عن الواجب العائلي المقدس وعن كل اهتمام صالح .

هذه البيوت لا تعرف ماذا تصنع بالجيل المقبل . لا تعرف أن هؤلاء الأطفال سيحصلون على عاداتهم المستحكمة التي تصرف حياتهم في المستقبل من هؤلاء الخدم الذين نعرف درجاتهم الاجتماعية . فان السيد فلان سيأخذ عاداته في الحركة والحديث والإيماءة والإشارة والمشية والضحك من الخادم فلان ثم ينسب بعد ذلك للسيد فلان !

لأنبل سيأخذ قاموسه اللفظي مما يسمع من الخادومات والخدم ، وستكون تعبيراته من بذىء التعبيرات والكنايات بينهم ، وستحفظ وأعيته الباطنة بكافة الإشارات الوقفة ، والحركات الساقطة والانفعالات القبيحة ، وحسبه أن يحمل من أبويه نسبة إليهما ولقبه الكريم ؟

هذه البيوت "الراقية" كما يسمونها ترتكب كل يوم مثل هذه الجريمة في حق الجيل المقبل ، وتخرج للجمع أحمق وأرذل الفتيات والفتيان ، الذين نشأوا في أحضان الخدم ، واستقوا عاداتهم وألفاظهم وأخلاقهم من أفقر الطبقات الاجتماعية في هذا البلد ، ثم تورثهم هذه البيوت القابها وأموالها وجاهها فتجعل لهم بذلك السيطرة على المجتمع ، وتبطلهم قذوة للآخزين ، وهم لا يتعلمون من هذه البيوت إلا اسمها ، أما نسبتهم الحقيقية فيجب أن ترد إلى طبقة الخدم المنحطين ؟

هذه هي الجريمة السافرة التي ترتكبها المرأة في هذا الجيل ويرتكبها الرجل معنا . وهي جريمة تقع مرة نتيجة للفهم الخاطئ لمقتضيات الأرستقراطية الكاذبة . وتقع مرة نتيجة لمقتضيات العصر التي تتيح للمرأة المتروجة أن تعمل في الحياة العامة ، فتضطر حتماً أن تكل شأن طفلها إلى خادم أو خادمة (فليس عندنا صربيات بالمعنى المهذب المعروف) وينشأ هذا الطفل سيداً في مظهره خاماً في خلقه ونفسيته يحكم العادات التي أخذها بالقذوة وبالتلقين ، بالحياة عادة . فلننتجده ، أن تزود أطفالنا بمجموعة صالحة من العادات ، ندرجهم عليها تحت إشرافنا بالقذوة وبالتلقين وبالممارسة . فهذه هي الأسس الثلاثة لتكوين العادات . والممارسة أهمها فالعادة لا تتكون إلا بتففيذ الأنفعال وتكرار هذا التففيذ حتى تثبت في المجموع العصى وتتؤدى بعد ذلك بدون جهد بل بدون انتباه .

أما الذين فاتتهم هذه العادات في دور الطفولة ، فلا يأسوا ، وانهم ليستطيعون أن يحصلوا على مجموعة من العادات الطيبة ولكن بعد الجهد الطويل .

الانتفاع بالعقل

بقلم الأستاذ صلاح الدين الأيوبي

رئيس ادارة البيع والرهن بوزارة التجارة

من أنيد وأمتع الدراسات الوقوف على نظريات العقل الحديثة التي بزغت بها أبحاث العالم النمساوي سيجموند فرويد الذي يعتبر أول من درس العقل ، وأبحاث من تبعه من تلاميذه في مختلف البلدان الذين تناولوها بالشرح والتعليق .

ومؤدى هذه الأبحاث أن لكل إنسان عقليين : أحدهما هو العقل الواعي الذي تقرأ به هذه الصحيفة ، فتعى شكلها وشكل الحروف المرسومة عليها والمكان الذي أنت فيه الآن ، وما هو موزع في هذا المكان من أشياء أو أذث أو خلافه .

ومن هذه الأشياء ما تعى به بجلاء ووضوح مثل معانى الكلمات التي تقرأها في هذا المقال ، ومنها ما لا تعى به بهذا الجلاء والوضوح ، مثل دقائق الساعة إن وجدت في الغرفة ، أو شكل الستائر المسدلة على نوافذها ، أو ألوان الصور المعلقة على حوائطها ، فكل هذه الأشياء تعتبر واقعة في مجال وعيك ، غير أن الأشياء التي تعى بها بجلاء ووضوح تعتبر واقعة في بؤرة هذا المجال ، والأشياء التي لا تعى بها بجلاء ووضوح تعتبر واقعة في حاشية هذا المجال . ويتحول الوعى من الحاشية الى البؤرة ومن البؤرة الى الحاشية بأسلوب طبيعي وبسيط كما تتم عملية التنفس .

ولا يقتصر مجال الوعى على ما هو خارج التنفس ، وإنما يتناول أيضا ما هو داخل النفس ؛ فأنت تعى بأنك تقرأ هذا المقال ، ويسمى هذا الوعى وعيا بالذات . وهو يلعب دورا هاما في حياة الانسان لأنه يمكنه من أن يجعل من نفسه رقبيا على نفسه ويوجهها للتوجيه السليم . والرجح الذي ينتاب الخطيب ويربكه إنما هو مثلنر من مظاهر إساءة الوعى بالذات ، وقد أمكن وضع علاج لهذه الحالة وغيردا من العيوب النفسية .

وهذا العقل الواعي هو عقل الانتباه والملاحظة والتفكير والتروى والتذكر والتخيل والابتكار ، وهو العقل الذي يقدر به الانسان شؤون يومه ، وهو العقل الذى وضع العلوم والثقافة الحديثة . وقد لوحظ أنه رغم تضجبه ورغم امتيازه بميزة الوعى ، لا يستطيع الثبات على مواصلة عماله وقتا طويلا ، فلا يمكنه طول البقاء على الوعى لأنه لا يتحمل التعب كثيرا .

وقد لوحظ أيضا أن مكانا ما في النفس دائية في انتهاز لحظات التعب التي تناب هذا العقل الواعي وتغتنم فرصة غفلته ، فتتدفق بجوارق تقف في سبيل الانتباه والملاحظة والتفكير والتروى والتذكر ، وكل أساليب العقل الواعي .

وقد تكون هذه الجوارق عن وليمة كانت بالأمس ، أو عن حفل ينعقد غدا وقد دعيت إليه ، فتسوق اليك هذه الجوارق أنك قد قمت خطيبا في المدعوين ، أو أنك جلست إلى شخص محبب اليك ، وأحيانا تسوق اليك الجوارق اكتشافا بمزية في شخص من أصدقائك لم تكن أدركتها فيه من قبل ، وأحيانا تابع عليك حادثة ماضية فيمنع الحاحها العقل الواعي عن متابعة أساليبه .

ويقال حينئذ إن ذهك قد شرد وأنه خطر عليك خاطر ، ومعنى ذلك أن عقلك الواعي قد تعب لأن طاقته محدودة في تحمل الجهود ، فانتابته سنة من الغفلة واتمزت هذه الغفلة جهة ما في نفسك تنبع منها هذه الجوارق .

بل إن النوم نتيجة لازمة لحالة التعب التي يصل إليها هذا العقل الواعي في نهاية اليوم ، وهو إذ يستسلم أثناء النوم إلى غفلته ، يخلو الجوارق لك الجهة من نفسك التي تنبع منها أنهار الجوارق فيراها الرئم أحلاما .

تلك الجهة التي تنبع منها الجوارق في اليةظة والأحلام في النوم ، هي العقل الباطن ثانی عقلي الانسان .

ويؤدى إدراك هذه الحقائق إلى الاهتداء لفكرة ، هي ، أن النفس مجموعة طبقات بعضها أقدم من بعض ، وأن كلا من هذه الطبقات تثبت في النفس بنسبة رسوخها في القدم ، وأن العقل الواعي هو أول ما يتأثر بالتعب أو المخدرات أو الصدمات لأنه أحدث طبقات النفس ، فلا يستطيع السكران مثلا ولا يطبق أن يقرأ في كتاب علمي ، ولكنه يسوق إليك حينئذ خواطره ، فيحدثك حديثا مسهبا دون عناء ، ذلك لأن عقله الباطن الذي تنبع منه الجوارق - وهي مادة حديثة - لم يتأثر بالخمر ، لأنه أرسخ من العقل الواعي ، نظرا لأنه أقدم منه . وإذا توغل السكران في سكره فإنه يفقد العقل الباطن فلا يستطيع ولا يطبق أن يحدثك ، ولكنه يظل متفعا بفرائزه التي يشترك في حيازتها كل من الانسان والحيوان ، لأنها أرسخ من العقل الباطن نظرا لأنها أقدم منه في النفس فهي لا تتزعزع بالمسهولة التي يتزعزع بها العقل الباطن على شبابه ورسوخه . ولكن إذا أثقل السكران امتد العطل إلى طبقة الفرائز فتزعزع هي أيضا .

ومن مقارنة العقل الواعي بالعقل الباطن يتضح أن العقل الواعي يخالف في أساليبه أساليب العقل الباطن ، فإذا كنت مغيظا من شخص فاني في يقظتي أتدبر الموقف ، وأرد الظواهر إلى عالمها ، وقد اهتدي إلى اعوجاج ما في شخصيته ، فأحاول أن أصلح من هذا الاعوجاج باعتباره علة

اعتدائه على ، ورغبة منى في قطع سلسلة ضحايا هذا الاعوجاج الخ... ولكنى حين أستسلم للخواطر أراى وكأنى أضربه أو أسبه ، أو كأنى جالس وحولى أتباع وأشباع وهو أت في ذلته ومسكنة يلتمس عنوى وصفحى ، وحين أنام أحلم بأنى أضغ فى جيده حبلا من مسد وأعلقه فى شجرة ثم أجلده بالسياط حتى تفتح فى جسمه جروح دامية تصبغ وكأنها أفواه تعذلى ، أو أنى أجزه على وجهة ويعفر التراب جبينه وألقى به فى بئر فيها تين فظيغ أو فيها أفعى لها خفيج رهيب ، أو أنى اقتله باسنانى ، وأمزق لحمه وأشلاءه .

ويدرك المتأمل أن أساليب العمل الواعى هى أساليب الثقافة الحديثة ، وهو لذلك سعى عقل الثقافة الحديثة ، وأن أساليب العقل الباطن هى أساليب الثقافة القديمة ثقافة الغرائز الغشيمة الخام ، غرائز الإنسان الفطرى الأول ، غير أن الخواطر تجرى أكثر تطفلا من الأحلام لأن العقل الواعى يمسها من قريب أو بعيد ، وأما فى حالة النوم فليس من شك أن الواعى ينعدم تماما ، وأن العقل الباطن يستعمل كل أساليب الثقافة القديمة فى التعبير عن محتوياته ولذلك فإنه سعى عقل الثقافة القديمة .

وهذا التدرج فى ظهور الثقافة القديمة من الوضوح والقوة فى الأحلام إلى التلطيف أو بعض التهذيب فى الخواطر إلى الزوال والاختفاء وقت إعمال العقل الواعى شير فكرة ، هى أن العقل الواعى ييمن على العقل الباطن ، فكيف تقوم العلاقة بين العتامين ؟

للاوصول الى سر هذه العلاقة نستعرض عمل كل منهما ونلاحظ أن العقل الباطن دائم العمل فى هذه اللحظة وأنت تقرأ هذا المقال وتتفهم عن وعى كلماته ومعانيه ، فان عقلك الباطن - دون أن تعى به - يعمل هو أيضا إذ أنه يحتفظ بتقريرات مفصلة عن كل ما تمارسه بعقلك الواعى ، وقد ذهب الدكتور يونج الى أن العقل الباطن يسجل أيضا مؤثرات يرجع عهدا إلى ما قبل انفصال الطفل عن أمه ، بل وعن أبيه ! ومعنى هذا أن كثيرا من عقائدنا وأفكارنا وتعبيراتنا وأفمالنا تتكون ، بادئ ذى بدء ، فى العقل الباطن ، وقد أكد التحليل النفسى النظرية القائلة إن المؤثرات على حياة الانسان وحيويته تنبع من أعماقه ، فأحيانا ترى أحد الأشخاص فتشعر نحوه ببغض أو خوف أو تفرز أو حب ، والغالب أن هذه العواطف والانفعالات ترجع الى أن شخصا ما يشبه قد سبب لنا فى صغرنا هذه الانفعالات فانطبعت صورته مقرونة بالانفعال فى العقل الباطن وحين مثل أمامنا الوجه المشابه للوجه المحفوظ فى سيرات العقل الباطن - نبع من الأعماق - بفضل التداى للشبه - هذا الانفعال المقتن بمثل هذه الصورة .

فلم تكن هذه الصورة قد محيت من العقل منهما طال العهد عليها ، ومهما ظلت غائبة عنا ، ذلك لأننا مادما فى غير حاجة اليها نستطيع أن نتخلص منها ومما يقتن بها من عواطف وانفعالات ، وذلك لكى نستطيع أن نباشر عملنا العادى . وقد زودنا الله سبحانه وتعالى بقوة دس

هذه الصور في العقل الباطن غير أن نبي بها وهي تقوم بعملها في كبت الذكريات حيث تظل محتبثة إلى حين طلبها . فنحن ننسى منظر قطار يدم شخصا ويقتهله ونكبت ما أقرن بهذا المنظر التظلم من الانفعالات .

وقد يكون الكبت صالحا للحيوان كذلك مثل كبت الحيوانات المنساختة ، فالعمومة تعوم بزفافها مادامت في المياه فاذا انسخت إلى ضفدع تنسى أنها كانت تعوم لكي تستطيع أن تمشي وهي ضفدع على الأرض .

وهذا الكبت هو إحدى العلاقات بين العقليين .

وتظهر علاقة أخرى بينهما مما نلاحظه أيضا في استمرار العقل الباطن على العمل ، وفي أنه لا ينفك يدفع بمخترياته وهي الخواطر في اليقظة والأحلام في النوم :

ففي اليقظة عند ما أريد الانتباه إلى أمر ما أشعر أني أبذل مجهودا في تركيز انتباهي لكي أبعاد عملي الواعي عن تيار الخواطر السائبة السارحة ، التي من طبيعتها أنها تكون سيالة ترد تباعا وبغير عناء ، بل أنها تكون مصحوبة في جريانها بسرور ، وأما لإعمال العقل الواعي فيستلزم استعمال جهد لتوجيه الانتباه ونحن نعي بحالة توجيه هذا الجهد في منع الخواطر الهائمة من الدخول في مجال الواعي . وهذه العملية هي المظهر الثاني من مظاهر العلاقة بين العقليين . وفيها تظهر هيمنة العقل الواعي على العقل الباطن .

وأما في أثناء النوم فتتوقف القوة الملحوظة - أي التي نعي بها - الخاصة بتوجيه الانتباه ، كما تتوقف القوة غير الملحوظة التي لانعي بها الخاصة بالكبت . فلا يكون انتباه ، ولا يكون كبت ، ويسمى نشاط العقل الباطن أثناء تعطل هاتين القوتين حاما . ومن ذلك يتضح أن كل إنسان يحلم . وعندما يستيقظ تعود كل من القوتين سالفتي الذكر المعطلتين إلى العمل فورا فيكبت كل الحلم أو بعضه ويتذكر الإنسان جزءا منه وينيب عنه جزء .

صلاح الدين الأيوبي

٢ - كانت لنا مطربة !

٢ - كيف نستمتع للغناء !

٣ - دلالة الذوق الفنى !

(١)

مات "سيد درويش" فترك مكانه خاليا ، مكان الفنان الماهم ، الذى يتلقى من الطبيعة وحيها فيصوغه أنفعا ، ومن النفس الإنسانية خطراتها فيصوغها ألحانا ، وخلف من بعده جماعة من "المجددين" ، قلده أولاً فى التلحين والأداء فكان بينهم وبينه ما يكون بين الأصيل والدخيل ، ثم بدا لهم أن يستقلوا بسرقة الألحان الأوربية ونظيرتها حتى تصبح رخوة مائعة تلي ما فى إحساسهم من رخاوة وميوعة . وراحوا يتمايعون ويتضاءون بالكلمات "الملتوتة" فى أنواعهم كناطق البله والمعتودين والمطعونين الذين لا يملكون إخراج النفس وتبيان الحروف . وفى أثناء ذلك البلاء الذى أصاب الغناء كانت لنا مطربة كبيرة واحدة ، كنا نعتد بصوتها الرخيم القادر على إلقاء مختلف النغمت وإبراز أشد المعانى . وكان النقص الوحيد فيها أنها لم تجد منذ ظهرت الى اليوم ذلك الملحن "الإنسان" الذى ينفع بهذا الصوت العريض العميق ، فيصوغ له من الألحان "الآدمية" . أى يودى به وظيفته العظيمة فى هذه الحياة .

كانت ميزة هذه المطربة الكبيرة أن لها من حلاوة صوتها وقوته وعمقه ما يجعلها تستغنى عن وسائل الاجتذاب الخارجة على دائرة الفن ، كما تاجأ المطربات غيرها الى أنوتهن ، وأنوتهن وحدها يبرزنها فى الأنغام ليكأن بها ما ينتقهن من الصوت وحسن الأداء .

ولكن يبدو أن القدر يريد أن يعرمتنا هذه المطربة الواحدة ، فقد أشرفت على المرحلة الحرجة فى حياة المرأة ، فراحت تعتمد الى ما كانت تجد نفسها فى غنية عنه من قبل ، وراحت تبرز الأثني فى نغمتها وتخفى المطربة ، ثم يتلبها الله بمؤامرين يصوغون لها أغاني ليس فى معانيها إلا إبراز معنى الأنوثة المكشوفة ، فتم الكارثة والعياذ بالله !

استعنت إلى الإذاعات الأخيرة للمطربة الكبيرة فأسفت وتألمت ، وقلبت كفى من الأسمى ... لقد كانت لنا مطربة يرجئها الله !

(٢)

وقبل أن ننفذ أيدينا من المطربين والمطربات ومن المؤلفين والملحنين ، يجب أن نعود باللائمة على الجمهور . فهذا الجمهور العجيب هو الذى يضج بالهتاف والتصفيق كلما تدغدغت أمامه مطربة ، أو تخطت أمامه مطرب . هذا الجمهور الذى يستمع للمطربات والمطربين بكل عضو فى جسده إلا أذنه ، وبكل حاسة إلا الحاسة الفنية ! هذا الجمهور الذى لا ذوق له ، والذى يصبح عند كل شطرة كالأوباش ، ولا يجد نسازا فى الجمع بين صوت التطريب الذى يسمعه وصوت الحيوان الهائج الذى يرد به عليه !

منذ زمن بعيد كرهت أن أذهب الى الصالات والمسارح لسماع الغناء ، لأننى لم أكن أستطيع أن أوفق فى أذنى وحسى بين هذه الطبقات المتناقرة من الأصوات على التوالي . ولم أكن أطيق منظر هؤلاء السكارى الذين لا يذهبون ليشتمعوا الا بعد أن يفقدوا كل مظاهر الوعي الإنسانى .

والآن أجاس فى بعض الأحيان وراء المذياع للاستماع ، وما استطعت أن أتخيل ضجيج المستمعين عند كل فقرة ، بل بين الفقرات كذلك ، إلا صراخ القطيع الهائج ، وثورة الحيوان المطعون !

أهؤلاء آدميون ؟

أنا لا أتهمكم ! فانا أشك من أعماق نفسى فى آدمية هؤلاء الذين لا يعرفون الطرب إلا هياجا وسعارا ، ولا يستمعون إلا وغرائهم السفلى التى تنفوز وتنتزى ؛ ولن يهيج هذه الهيجة عقب كل فقرة إلا الحيوان المكبوت المسعور الذى ينطلق من عقاله ، فيصبح ويتعبط ويصفق ، كما يصنع هؤلاء المستمعون !

ودليلى على ذلك أن هذا الهياج المسعور يبلغ أقصاه عند ما تتد عن المطربة أنه الأثنى وتوجهها ، أو تصدر عن المطرب دغدغة متميعة ؛ فهنا تنفجر تلك البهيمية المكبوتة التى أطلقتها السكر من عقالها وهاجتها هذه الأثام والتميعات .

(٣)

والعجيب أنك لا تكاد تستخلص من هذا الشعب كله واحدا فى الألف يفتن إلى هذه المعانى . وهذه كارثة . فدلالة الذوق الفنى على مدى الرقى الإنسانى دلالة لا تكذب . فهذا الرجل الذى يدعى لنفسه وتدعى له شهاداته الثقافة ثم يخط ذوقه الفنى إلى مثل هذا المستوى تستطيع أن تجزم وأنت مستريح أن دعواه ودعوى شهاداته كاذبة من الأساس .

وأنت تجد بين هذا القطيع المائج : المهندس والطبيب والمدرس وطالب الجامعة
وزوج التجارة و... .. وكل هذا محتمل ، لولا أنك تجد من بينهم أيضا بعض الأدباء
والشعراء والفنانين ... يا للكارثة ! إن الأدباء والشعراء والفنانين هم خلاصة الانسانية في كل
حين ، فكيف يتحدرون في مصر إلى هذا الحضيض ؟

إنني حين أنظر من هذه النافذة إلى الشعب المصري يدركني يأس عميق من مستقبل هذا
الشعب كله ، ولا يوصوص لي الرجاء إلا حين ألتقي بالأفراد القلائل المرتفعين عن هذه
الوعدة ، والذين المبح في إحساسهم وتقديرهم الفني شعاع الآدمية المضيء ! .

وسيعتمد أناس في قياس نهضة الشعب على إحصائية المتعلمين ، وعلى نمو الحركة
الصناعية ، وعلى عدد السيارات والتليفونات والرديوهات ... إلى آخر ما يتخذه الباحثون
الاجتماعيون من أنواع الإحصاء ليقبسوا بها حضارة شعب من الشعوب .

أما أنا فسأعتمد على مقياس واحد لا يخطئ هو الإحساس الفني في نفس هذا الشعب .
الإحساس بالغناء والموسيقى والتصوير والنحت والأدب وسواها . لن نخدعني العربة الفانحة
والكسوة الأنيقة والشهادة العلمية والخبرة العملية فطالما وجدت وراء هذه المظاهر جميعا حيوانا
في إحساسه التفسى ، أو عاميا في ذوقه الفني ، وتلك هي العلامة التي لا تخفى في جميع العصور .

والمصيبة أن هذا الذوق الدامي ليس قاصرا على الغناء ، بل يشمل جميع الفنون ، وإنك
لتجد في بعض الأحيان مخلوقات عجيبية من أولئك الذين تدعى لهم شهاداتهم العلمية أنهم
متهفون ، ثم تستمع لآرائهم في الأدب أو الموسيقى أو الغناء فيخيل إليك أن هذه الملابس
التي يرتدونها ملابس تنكرية ، وأن في داخلها صلوكا من الصهاليك .

أنا لا أطيب من كل إنسان أن يكون أديبا أو شاعرا أو عارفا بأصول الموسيقى والغناء ،
ولكنني أطلب ذوقا فنيا يعتمد على حسن سليم ، فلن يكون إنسانا ذلك الذي يتفقد هذا القدر
من الإحساس الطبيعي الأصيل .

والواقع أن تربية الذوق الفني عندنا متروكة للإهمال ، لا يبنى لها أحد في البيت ولا
في المدرسة ولا في الأدب الذي يدرس بالمدارس ، وهو وحده مخزراته كفيلا لإفساد كل ذوق سليم .

رأيت في كتاب من كتب البلاغة المقررة في المدارس الثانوية البيت التالي :

والورد في شط الجليج كأنه رمد ألم بمقالة زرقاء !

فقلت في نفسي : معقول إذن أن يعجب المصريون بالمطربين والمطربات المصريين .
نقد تلقوا أصول الذوق الفني من الورد الذي يشبه الرمذ في العيون !

”س“

ولله في خلقه شؤون !